الأصالة والتفتح

بقلم محمد المزالي

لعل أهم القضايا بالنسبة للشعوب العربيه الاسلامية ، بل ول بالنسبة لبلدان العالم الثالث عامة ، هي ما اصطلح عليه بمعركة الخروج من التخلف والاخذ باسباب العصر الحديث واللحاق بركب العالم المتحضر . وكثيرا ما نلخص هذا المطلب ، ويرد ، في عبارة الازدهار والكفاية . ولطالما طرقت أسماعنا الشعارات المنادية بتفوق العلم والتكنولوجيا ، المؤكدة على أولوية الاقتصاد والتقنية ، وتسابقت في ربوعنا نظريات الغير وتجاربه – ولا تزال – نسعى الى اغرائنا وحملنا على تبنيها ، أو على الاقل استعارتها ، بوصفها الطريق الاوحد والامثل لبلوغ القصد .

ولا سبيل – في الواقع – الى ان ننكر ان المذاهب الوافدة علينا والعقائد المتصارعة فوق أرضنا تفعل في اجيالنا الصاعدة فعل السحر ، وان النماذج الحية وانماط العيش العصرية التي تسلطها علينا – برضانا او بالرغم عنا – المجتمعات المتقدمة المزدهرة، المنعوتة بمجتمعات الاستهلاك ، لا تخلو من فتنة واغراء في بلداننا وبين شبابنا الطالع بالخصوص ، وذلك بفضل ما تتمتع به هذه المجتمعات وتستغله الى اقصى حدود الاستغلال من مختلف الوسائل السمعية والبصرية وفنون الاعلام والاشهار .

فكأن شرط الازدهار والتقدم والمعاصرة يتمثل في التنكر للماضي والابتعاد عن التراث والتشبه بالغير وتقليده وانتحال شخصيته . لذلك وقع الكثير في احابيل هذا المنطق ، فكان بعضهم ازاء العصر والتقدم العلمي والتكنولوجي جبناء عقليا خجولين وجدانيا ، وأعوزتهم فحولة المواجهة المصيرية . انهم اعتبروا ثمن التقدم باهظا مخلا بالكرامة فبحثوا عن طريق يمكنهم من درء هذا الداء الداهم والبلاء المنصب على الشعوب المستضعفة من كل صوب ، ونبهوا الى ضرورة اليقظة لاجتناب الافخاخ المحيطة بها والاطماع المتجهة اليها . فكان رد الفعل المعاكس وكان الرفض لكل ما هو أجنبي مستحدث ، وآل حرصهم على الاصالة الى ضرب من التقوقع الحضاري والعزلة الثقافية والانحصار في الذات القومية الضيقة ، مثلهم في ذلك كمثل من يتمسكون بحجاب المرأة بوصفه الحارس الامين على عفتها وطهارتها، ناسين ان صيانتها ليست في احاطتها بقطعة من القماش مهما كانت سميكة ، بل في سلامة تربيتها وقوة شخصيتها بحيث تكون « في النار ولا تحترق » .

وانسلخ فريق ثان عن قوميتهم نفسانيا وعقليا ، وذهلوا عن الروابط التي تربطهم ببيئتهم وتراثهم وانخلعوا عن مقومات الذات بدعوى اللحاق بالقطار العصري والقضاء على اسباب التخلف ونادوا بالتفتح دون الحرص على اصالتهم فكان الذوبان والضياع والتفريط في الماضي بدعوى الانسجام مع المستقبل .

الا انه لا يمكن الاطمئنان الى ضرب من الثنائية الوجودية ينقسم معها الانسان على نفسه انقساما ويجعل من التناقض بين المعاد والمعاش والروح والمادة ، والخير والشر وبين الوحدة والكثرة ، والجوهر والوجود ، والماضي والحاضر ، فضاء مبرما وجبرية وليسله معها بد من التضحية بجملة قيم اساسية والتفريط في جانب حيوي من شخصيته ووظيفته في هذا الوجود .

والحقيقة انه يتعذر الفصل بين شؤون الانسان العاقل المترشد العائش في مجتمع حي متكامل ، سواء كانت روحانية او سياسية او اقتصادية او اجتماعية او تربوية .. لانها – جميعها – كل متماسك متضامن ملتحم الاجزاء مشدود بسلم قيم واحدة ومستوحى من عبقرية واحدة ومنتسب الى حضارة طريفة متميزة واحدة . ولن تكون الحضارة متعادلة خلاقة منيعة حتى تعني بالعقل والوجدان والذوق عنايتها بالمادة ومعرفة نواميس الطبيعة للتأثير فيها والسيطرة عليها والحرص على توفير اسباب الرفاهية والازدهار لكافة المنتسبين اليها والعائشين في كنفها .

وفي هذا الصدد قد يكون من السهل ولكنه ليس من الصواب في شيء اصدار الاحكام الباتة المطلقة والنعوت القاطعة ، اراحة للضمير او تغطية لمركب النقص بعقدة الغرور ، اذ الواقع ارحب مجالا واوفر تنوعا واكثر تعقيدا مما قد يظن . من ذلك ما يؤكده بعضهم من ان الشرق مثالي فقط وان الغرب مادي فقط ، بينما المثالية والمادية قدر مشترك بين المجتمعات جميعها ، كما هو الشأن بالنسبة للافراد ، قد يتفاوت حظها منهما بحسب كل مجتمع وفترة زمنية ولكنها جميعها مثالية ومادية في آن واحد ، ترنو الى السماء مدفوعة بروحانيتها وتجتذبها الارض نحوها اجتذابا ، فهي في توتر متواصل وحركة دائبة في الاتجاهين ، وانما تتفاضل هذه المجتمعات وتشرع بمدى تفوق بعضها دون بعض الى ايجاد ذلك التوازن الخصب والحي بين مطامع الروح ومقتضيات المادة الذي هو الصفة العالقة بمنزلة الانسان في الكون .

فالدراسات التي تعتمد الحيز الجغرافي وحده او الاطار التاريخي وحده كمنهاج للمقابلة بين الاصالة والزيف غير مصيبة دائما . وانما يجب الانطلاق من القيم التي نؤمن بها والمقومات التي هي جزء منا لا يتجزأ والملاءمة بينها وبين مقتضيات العصر وضرورة الانسجام معه والاخذ باسباب القوة للتأثير فيه .

ولو وجب ان نبتغي فيما اتانا الله الدار الآخرة دون ان ننسى نصيبنا من الدنيا . وكان من الضروري والحيوي ان نحقق التنمية المتوازنة والنهضة الشاملة وان نبني النفوس وخاصة نفوس الاجيال الصاعدة بناء جديدا عصريا مخلصا لذاتنا ، معززا لاركاننا الاساسية، فلا بد من علاج مشكلة الاصالة والتفتح ، والاحاطة بكل جوانبها ورفع بعض الالتباسات التي علقت بها ، حتى تتضح سبيلنا ونسير في الدرب الموصل الى أعز امانينا في الوجود ونضطلع برسالتنا القومية الانسانية على خير الوجوه .

والاصالة مصدر (أصل يأصل) أي كان له اصل راسخ ، وجذور عميقة ، وعكسها الزيف والتفاهة . وعندما نصف امة من الامم بالاصالة فاننا نؤكد ان لها طابعا متميزا وتراثا نابعا من روحها وشخصية طريفة لها اصول ثابتة ومقومات قادرة رغم تعاقب العصور وتبدل الاحوال . فاذا اطلقنا صفة الاصالة على الحضارة وبصورة ادق على الثقافة فانه يراد بها التميز والتفرد بوشائج وجدانية وخصائص فكرية ومضامين روحية واسلوب طريف في ادراك الحياة والتعبير عنها . وبهذا المعنى ليس في الاصالة تعصب ولا تحجر بل هي شرط ضروري للحوار والارتشاح والتلاقح بين الشعوب من دون تفوق لاحدها على الآخر بل على قاعدة التفاعل الايجابي والتوازن بين الاخذ والعطاء . هذا من الوجهة النظرية المتوخاة من مفهوم الانسانية السليم .

امـــا من الوجهة التاريخية فان الامر كان على عكس ذلـك بكل اسف . ذلك ان الاستعمار لم يستهدف فحسب ثروة الشعوب الضعيفة التي ران عليها الانحطاط بسبب تعطل الفكر الخلاق في ربوعهـــا وانغلاقها على نفسها وانخرام التوازن الضروري بين الروح والمـــادة لدى ابنائها ، ولم يقتصر على الغزو العسكري والاحتلال الاداري بل عمد الى تهشيم الاعمدة التي تقوم عليها حياتنا القومية وهي الدين واللغة والتاريخ وكل القيم الفكرية والاخلاقية التي نستمد منهـــا معنى الوجود واسرار العزة والكرامة .

وكان فريق من المستعمرين يعتقدون ان الواجب يدعـو الى مقاومة « التعصب الاسلامي » على حد تعبيرهم حتى تسطع انوار العالم المتمدن على ربوعنا . انهم كانـوا يحملون رسالة « التمدين » كمـا حمل زملاؤهم رسالة التبشير وكانـوا يحاولـون القضاء على مقومـاتنا باسم التقـدم والتقدميـة والحياة العصريـة في مفهومهم .

وفريق آخر لم يتذرع برسالة ولا تعلل باهداف ساميـة بل قـال في صراحـة تامة ان المهم هـو ابقاء الاهليـن في حالة التخلف الموروثة والتمسك بالمعتقـدات المتحجرة وحرمـانهم من التعليم القومي وكـان يتزعم هذا الاتجاه « هنري تريدون (راجـع كتابـه : « كيف ستخسر فرنسا مستعمراتها ») .

هذا من حيث الاسلام . اما مـن حيث اللغـة العربيـة فقـد حصل الاجماع على وجوب القضاء عليهـا وخاصـة في بلدان المغرب العربي ووضعت لذلك المخططات المضبوطـة ، فامـا ابقاؤها في الكتاتيب وقصرها على بعض المواد الدينيـة واللغويـة او حذفهـــا تماما في المدارس الفرنسيـة التي أقبل عليهـا ابناء شمال افريقيـا لادراكهم ضرورة الاخذ بالعلوم والمعارف العصرية ، او التقتير في تعليم هذه اللغـة كأنهـا لغة اجنبيـة في المدارس العربيـة الفرنسية كمـا كانوا يسمونها . وهـذا المستشرق الشهيـر ويليـام مارسي يصرح في مجلـة التعليم العمومي (انظر عددي ديسمبر ۱۹۳۰ وجانفي ۱۹۳۱) :

« ان اللغـة العربية ـ بوصفهـا اداة للتفكير ـ تصدم صدامـا غريبا اساليب التفكيـر الغربي فهي عبارة عـن حيوان ذي رأسيـــن ويا لهمـا مـن رأسين ! وان البرامج المدرسية لـم تهتـد الى استعمال هذه اللغـة لانهـا غيـر مجعولـة لايواء الكائنات العربية » .

ويضيف مارسي في نفس المرجع من دون أن يتنبأ بانه بصفـة غير مباشرة يلقـن بكلامـه هذا درسـا لابنائنـا ، فيقول : « انه ليس مـن الممكـن ولا من المعقول بل انه مـن النادر ان تتعايش لغتان حضاريتـان في بـلاد واحدة . على انـه اذا تمتعت هاتـان اللغتـان بنفس المنزلـة وعبرت عـن نفس المضاميـن فـان هذا التعايش يمكـن ان يتواصـــل خاصـة اذا ساندته العواطف . امـا اذا كانت احداهمـا لغـة القـادة واداة الاتصال بمدنية عصريـة كبرى وانصفـت بالوضوح وتقارب فيها الكلام والكتابة وكانت الثانيـة اللغـة المولى عليهـا ولا تعدو في احسن كتاباتهـا التعبيـر عـن افكار القرون الوسطى وكانت غامضة وتباعدت كتابتهـا عـن نطق اهلهـا بها ، فـان القوى غير متعادلة ولا تلبث ان تحل الاولـى محل الثانيـة » .

الا ان تنبوءات هذا المستشرق لـم تتحقق لان طبيعـة الاشيـاء وعزيمة الشعوب تابى الا ان تحتفظ كل امة بخصائصهـا واعز مقوماتها. لذلك اضطـر « مارسي » الى مراجعـة رأيه ولم يتصف بالعناد الذي ران على الادارة الاستعماريـة ببلدانـا حتى آخر لحظـة من لحظات سطوتها . فكتب في مقال بعنوان « اللغة العربية » نشر لـه في فيفري ۱۹٤٥ » بمجلة الدراسـات العربية » (العدد ۲۱) : « هـاهـو النثر العربي اليوم يتصف بالمرونـة والوضوح ويتجدد تجديدا بفضل مجهودات جيلين من الكتاب ويصبح اداة تعبير طيعـة عن الحضارة العصرية .انه بلـغ المستوى الذي يؤهله بل يحتم عليه ان ينتج روائع فكريـة ... واني لارجـو بكل جوارحي ان يأتي يوم قريب تنقل فيه آثار كاتب عربي الى احدى اللغـات الاوروبية فتقيم للغرب الدليل على ان ابناء عدنان وقحطـان قادرون مرة اخرى على تنمية تراث الانسانية الفكري .

اما تاريخنـا فـان بعض هؤلاء العلمـاء ـ ولا اقول كلهم لان الكثير منهم قدمـوا للفكر العربي الاسلامي خدمـات لا تنكـر وخاصة منذ الحرب العالميـة الاولى ـ قلت ، ان بعض هؤلاء العلمـاء شوهوا تاريخنا واكدوا على الجوانب المظلمة دون الجوانب المشرقـة وعللوا بعض ظـواهـره واحداثه بصفات وغرائز سلبيـة نسبوها اعتباطـا الـى شعوبنـا ، وجعلوا من ارضنا ممرا للغازيـن ومعبرا للفاتحين ووعـاء لحضـارة الداخليـن ونفـوا ان تكـون بلادنا لعبـت دورا ايجابيا واخضعـت الاحداث الى مشيئتهـا وكيفت التاريخ بارادة ابنائها .

ولا يزال بعض الدارسيـن الى اليـوم يجهدون انفسهم ليقنعونا بأن فكرة « الوطـن » ذاتهـا ظاهرة حديثة ومعنى مستورد من البـلاد المتقدمـة وانه لولا الاستعمار واحتكـاك شعوبنـا بأوروبا لما فزنـا بشخصيتنـا الوطنيـة المتميزة بل انهم يعمـدون الـى تشريح معنـى الاصالـة وتحليلها ويرجعونهـا الى اصول اجنبيـة غريبة عنـا وكأنهم يريدون ايهامنـا بانه لا ماض لنـا ولا وجود سابقا ، اي انه لا بقاء لنا ولا مستقبل الا اذا درنـا في فلكهم وكنا لفكرهم وحضارتهم من التابعين المواليـن .

ولم يقف الامر عنـد حد هؤلاء الباحثيـن والكتاب ، بل تجـاوزه الـى نفر من ابناء وطننا تتلمذوا عليهم واخذوا منهم نظرياتهم واصبحوا يدينون بافكارهم ويدرسونها ويقومون بابحاث في سياقهـا . وهـو ادهى وامر لانه اذا امكـن الرد على الاجانب وتبيـان تهافتهم والتحذير من سمومهم وفضحهم امـام الشعوب ، فكيف العمل ازاء ابناء جلدتنا الذيـن يدعـون الوطنية ويناضلون مع ذلك مـن اجل نشر بعض التيارات الفكريـة الثقافيـة الاجنبيـة باعتبارهـا الطريق الاوحد للخروج مـن التخلف والتحرر الشامل . الم تتغلغل هذه النزعات تحت قناع التقدمية والاشتراكيـة والثوريـة وبدعوى مناهضـة الاستعمار والامبرياليـة حتى في صفوف بعض الشبان والطلبة في حركات التحرير ببعض البلاد العربية والعالم الافريقي والاسيوي بصفة عامة ؟ على اننـا عرفنـا هذه الشنشنة ايـام كنـا نكافح الاستعمار بالحديد والنار لا بامضاء العرائض وتخيل النظريـات واقمنـا الدليل والحمد لله على ان الوطنية ظاهرة طبيعيـة وشرعيـة وأنهـا لا تتضارب مـع الانسانية ولا تتنافس مع التفاهم الصادق والتعاون النزيه بل انهـا السبيل الوحيد لاقرار السلم فـي العالـم والوئام والمحبة بيـن كافـة البشـر .

وانه لمن نكـد الدهر ان نتحدث عـن « غزو الفكر » وان ننعي الكثير من ضحاياه بينمـا الفكـر حـر او لا يكون ، وهو اداة تحرر وتحريـر قبل ان يكـون قناعا للهيمنة وذريعـة للسيطرة ، وحاشاه ان يستغـل للاعتداء على الثقافات وتسميم العقليات والقضاء على تراث بعض الاقوام والحيلولة في اخر المطاف دون انتصار الانسانية التي لا مستقبل لهـا الا بتعـاون الثقافات القوميـة وارتشاحها بعضهـا من بعض وتناغمهـا بعضهـا مـع بعض والحفاظ على طرافتهـا وروحها جميعا .

ولقـد اخطأت الدول الاستعمارية في حسابها ، وكذلك بعض الدول الكبرى التي تدعي اعانتنا على التخلص من الاستعمار وتحاول اشاعة الغذاء الايديولوجي بيـــن شبابنـا ومثقفينا للتحرر الاجتمـاعي والاقتصادي ـ اخطأت جميعهـا عندمـا حاولت كسب الشعوب الافريقية والاسيويـة سواء في مطلع هذا القرن ، عنـد ظهور الوعي الوطنـي وخاصـة غداة الحرب العالميـة الثانيـة لما زكت العادات القوميـة ذكاء وأججت واستحالـت فعلا وجهادا ، او بعـد ان استجاب القـدر لارادة هـذه الشعوب ففازت بنعمة الاستقلال والحرية ، قلت عندمـا حاولت كسبهم بالانجازات الاقتصاديـة وعمليـات الاحياء وتنمية الثروة الماديـة واسنـاد بعض المناصب الاداريـة الى الاهالي ، انهـا اخطأت بالخصوص عندمـا اعتقدت ان نشر ثقافتهـا وفرض لغاتها على انقاض روحانيـات الشعوب المولى عليهـا ومعتقداتها وتراثها .. يضمن لهـا الحضور ولمصالحهـا البقاء . ولو اتعظت بتاريخها ذاته لادركت ما كـان ينتظـر مشاريعهـا من ذريع الفشل .

ولئن كان التشغل الشاغل لشعوب العالم الثالث هو الازدهار والتقدم المادي فانه من الغريب ان يغيب عن اذهان البعض ان الرفاهية المادية ليست كل شيء في الحياة . فان شعوبنا انما حملت السلاح وخاضت المعارك الدامية وقامت بما قامت وضحت بما ضحت به ، من اجل الاستقلال والحرية والكرامة التي كانت وما زالت شعارات مقدسة وقيما سامية سقط المجاهدين ويستشهد في سبيلها الشهداء البررة ، وتبلور ارادتنا الجماعية في الحياة الحية والانسانية الكاملة . وانها لحقيقة سرمدية لا تزال تفرض نفسها فرضا ولا يزال التاريخ القديم والحديث يقيم عليها الدليل تلو الدليل ، تلك التي تقرر ان الامم تؤمن بقيم عليا تجاوز ضرورة الانتاج والازدهار المادي وتتشبث في حياتها بمعان وغايات تهون دون بلوغها الحياة نفسها . فليست كل حياة جديرة بان نحياها بل يفضل الانسان الحر كأس العز ولو كان طعمه طعم الحنظل على كأس الحياة في ذلة » . انها ليست « عنترية » تجاوزتها الاحداث ولا عاطفة جامحة لا تلبث أن تتوارى امام الواقع الدامغ وضروراته القاهرة . سائل هذه الاوطان واعتبر بتاريخها اعتبار المتبصر تدرك عظمة الانسان يؤثر « نوعية الحياة على الحياة »فيتجاوز المادة والوجود الحسي وينفذ الى الروح والجوهر من دون أن يهرب من هذا العالم وينهزم امام نواميسه ومقتضياته بل يخوض غماره خوض الجسور لا خوف الجبان الحذور ، كما قد يقول ابو حامد الغزالي ويسلط عليه نور عقله ووهج وجدانه فلا يزال به حتى يغيره ويقده على قد المعاني والاماني والقيم التي آمن بها ونذر حياته في سبيل اعلائها ونصرتها .

ثم اننا نسائل هؤلاء الاقوام الذين « يشتهوننا » ويريدون أن يدخلونا الى جنانهم بالسلاسل بدعوى الوفاء للانسانية واخراجنا من « عهد الظلمات » الى عصر النور والمدنية والعقل والتقدم : هل ان جميع الاوطان وكل البشر مضطرون الى التطور في اطار واحد وعلى نسق واحد لتحقيق التفاهم وخلق الوئام ونصرة السلم ؟ هل الوحدة تقتضي التجانس وذوبان الفروق ؟ هل انسان هذه الانسانية المنشودة لا عصب له ولا لحم ولا سمات مميزة ولا حساسية طريفة ولا تكيف او تأقلم او تقمص في الجماعة والوطن ؟ وهل القول بوحدانية جوهر الانسان معناه انه هوهو في كل زمان ومكان ؟ الحقيقة انه منذ افلاطون الى اليوم لا يزال عدد كبير من المفكرين يتصورون الانسانية امتدادا لوطنهم ووفاء لقيمهم الذاتية وانهم عندما يعلنون ان الانسانية هي وطن الانسان الاكبر وان القومية تفسده وتتردى به الى عصبية جاهلية فانما يطمحون ـ شعروا بذلك ام لم يشعروا ـ الى اقناعنا بان وطنهم هو المثل الاعلى الذي يجب ان يحتذى . وكم استغل السياسيون هذا « المذهب الانساني » السخي المغرق في الانفتاح لبسط نفوذهم وضمان مصالحهم المادية والمعنوية ، وكم كان هذا المنطق تعلة لاغتيال ثقافات قومية عديدة وطمس مدنيات اصيلة ووأد حضارات ذات قيمة تاريخية لا تنكر والحقيقة ان القومية تجسيد للانسانية وطريق مستقيم موصل اليها ، وضامن لسلامتها وبراءتها من شوائب الهيمنة وشوائن التفاضل وان ثراءها وتجددها وبقاءها على وجه الدهر مشروطة كلها بمساهمة القوميات الحرة المترشدة الغيورة على ذاتها ومضمونة بتكامل الحضارات على اساس الاصالة ومبدأ التساوي وجدول الحوار الخلاق والتلاقح الخصب ومنطق الاخذ على قدر العطاء » . ولعل الشاعر المفكر « فاليري » قصد ذلك عندما قال : « يجب ان نستمد من فوارقنا ما يثرينا جميعا ويعمق انسانيتنا » .

وعلى غرار هذه المذاهب الانسانية المجردة التي ليست نيتها خالصة لوجه الله دائما والتي لا تخلو من غبن في ذات الانسان الحق عندما نجردها من « الرومانسية » التي اكسبتها هالة من الجلال المزيف نجد الماركسية كما فهمتها بعض الدول الكبرى ـ تنادي بتجاوز العاطفة الوطنية وتعتبر القومية من سمات البورجوازية وعقبةفي طريق التحرر الكامل وحائلا دون وحدة البروليتارية العالمية في زحفها الجبار نحو جنة الاشتراكية الموعودة . ولقد عرفنا هذا المنطق الماركسي ايام النضال من اجل الاستقلال ولكم طالعنا في صحف هذه الاحزاب ببلداننا في المغرب العربي الكبير منذ نصف قرن وخاصة قبل سنة ١٩٥٠ المقالات التي تؤكد ان سبيل التحرر يمر بوحدة الصف مع الشغالين في فرنسا خاصة وكم حاولوا ايهامنا بان التشبث بالماضي وبقيمنا الروحية ضرب من الرجعية وخطوة الى الوراء تباعد بيننا وبين مجتمع العدل والكفاية . ولئن اتعظوا بخيباتهم في هذا الشمال وحتى فيبعض دول افريقيا فاصبحوا ينتحلون شعارات الوطنية والقومية ووحدة الصف مع كل القوى المنتجة وضرورة ما يسمونه اليوم « بالاندماج الاجتماعي » فانجوهر الماركسية تجاوز للوطنيات . الا ان الدول الكبرى التي اعتنقته مذهبا اقتصاديا واجتماعيا وروحيا لاءمت بين معطياته الاساسية واركانه الكبرى وبين الانانية القومية المقدسة حتى قيل « تروسنت الماركسية قبل ان تتمركس روسيا » ، ولعل هذا المذهب اصبح في بعض الاحيان الممر الذي تصل عن طريقه بعض الدول العظمى الى قلوب وعقول اطارات الدول النامية وطلائعها المفكرة .

وهناك نزعة اخرى يمكن ان نسميها علمية تؤكد ان قضية الاصالة تجاوزتها الاحداث لان العلوم العصرية والتكنولوجية كشفت عن حقائق جديدة من شانها ان تقلب مفاهيمنا رأسا على عقبوتضع المعتقدات واللغات وحتى الوجدانيات في المقام الثاني فاذا ما رمنا ان نحيا مع عصرنا ونتلافى ما فاتنا « ونلتصق » بركب البشريةالزاحف وجب ان نتطهر مما ورثناه عن الماضي وان نستبق المستقبلونقتبس طلائع المستحدثات العلمية والمبتكرات التكنولوجية . الم يقل العالم الشهير « ابنهامر » ان الدولة التي فيها عشرة الاف عالم ودماغ الكتروني تستطيع ان تسبق الدولة التي فيها ١٠٠ الف عالم ودماغ الكتروني واحد ؟.. ثم اليست الايديولوجية نفسها شيئا نسبيا ؟ اليست الاصالة والابداع والعواطف الانسانية والتصورات الماورائية مجرد ظواهر تاريخية لا تلبث العقلية الجديدة ان تذروها ذروا ؟ الا نشعر بالحيرة النفسية وحتى بالقلق الميتافيزيقي عندما يقول العالم « جان روستان » في كتابه (علم الحياة وعلم الاخلاق) :

« يكفي ان تحرم « البلاسما » من بعض عناصرها الكيميائية حتى تتلاشى في الروح انبل امانيها ، فعندما تتوقف مثلا الغدة الدرقية عن افراز عنصرها « التيروكسيد » في الاوعية الدموية تزول ملكة الذكاء ويفقد الانسان حس الالم والجمال والتدين ». ويضيف«روستان» ان الغدد على اختلافها هي التي تجعل الحب والحقد والحماسوالفرح ممكنة ومن هنا ظهر علم جديد يسمى البسيكوكيمياء .

ولا يسعنا الا ان نرفض هذه الجبرية العلمية كما رفضنا حتمية الماركسية وغيرها من المذاهب المستوردة والمهافت عليها ، اذ لايسمح الوقت بالتعرض لها مثل الوجودية التي أفل نجمها منذ سنوات، واصبح « سارتر » وهو امامها الذي كان له الصدى البعيد لدى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية ، يقصر نشاطه العلمي علىتوقيع العرائض صحبة رفيقته في الحياة والمذهب « سيمون دي بوفوار »، والهيكلية التي تحاول الانتشار على انقاض الوجودية والفرودية التي رجعت لها صولتها منذ أن طفت الغرائز البدائية وسيطر العنف وتضاءلت القيم في بعض البلدان التي تعاني ازمة ضمير وتشكو تداعي حضارة ومنذ ان اسعفها « ماركوز » خاصة عندما جعل الغريزة الجنسية (EROS) المحرك الاول والمكيف الاصلي للسلوك الفردي الجماعي ..

اننا نرفض هذه الحتمية العلمية لاننا نرفض الحياة داخل قفص الحضارة التكنولوجية والتضحية بالعديد من مزايانا وخصالنا

الانسانية . ونعتقد ان الروح العلمية ليس كل شيء في الحياة ، فالانسان عاش حوالي خمسين الف سنة قبل ان يكتشف الطريقة التجريبية ويتفهم حقيقة الحرارة والجاذبية والنور . والسلوك الانساني لا يخضع دائما للنواميس العلمية في برودتها وصرامتها ، والانسان محتاج في توازنه الى ان يحلم ويشعر ومحتاج الى الحرية وممارسة الفعل ، والى جانب النظرة العلمية التي تكشف وجها من الحقيقة والواقع هناك الرؤية الروحانية للاشياء والرؤيا الشعرية والرؤيا الفنية وبصفة عامة الرؤيا الشاملة للكون ومنزلة الانسان فيه . ولعل هذا ما يقصده الشيخ الرئيس ابن سينا عندما يتحدث عن « الحياة التي بالعرض » (لا بالطول) وهو ما يعنيه الشاعر « رامبو » عندما يقابل بين الحياة الحق وبين واقع الحياة وهو الواقع الحياتي الذي نصطدم به ونتمرد عليه ونؤثر فيه ، نغوص في اسراره مدفوعين بتلك الشعلة المقدسة المكنونة في ذاتنا والتي بها نتميز عن الحيوان والجماد وبوحيها نسعى الى ان نكون خليفة الله في الارض .

وليس العلم عاجزا فقط عن شفاء الغليل والجواب على كل الاسئلة المصيرية التي تفرض نفسها اليوم رغم غزو الفضاء ورغم ما يقال عن تكييف الانسان بحقيقة جسمه ودوافع مجتمعه ، بل انه في حاجة هو الاخر الى « تفسير » و« تقييم » لهذا الذي كشف عنه وساعد عليه واتاحه من عجيب الظواهر وروائع الامكانات مما جلب في بعض الاحيان مضاعفات غير منتظرة وارهف شعور الانسان بانه ربما اصبح اقل قدرة من ذي قبل للسيطرة على العالم واخضاعه لارادته .

ثم انه سواء نشطت الغدة الدرقية ام لم تنشط وسواء تغيرت طبيعة العلاقات الاجتماعية بين البشر أم لم تتغير ، فان الانسان لا يزال حائرا في امره ازاء الموت والمصير وهو اللغز الذي عجزت عن حله كل المذاهب التي تعرضنا لها . ولا بد ان يفلسف كل انسان ذاته وبالتالي لا بد ان يفلسف كل وطن نفسه ويستهدي سلوكه بوحي من القيم التي يضمنها الحياة في كل ابعادها الوجودية . وفي ذلك يتجلى الوفاء الاصيل لاصيل الاشواق البشرية .

مما سبق نستنتج ان الثقافة الحق والحرية البشرية الكافرة بالتبعية الايديولوجية ، الرافضة للحتمية التاريخية او العلمية وان الاخلاص الحي لجوهر الانسانية المتجددة تدعو جميعها الشعوب والافراد الى التمسك بالاصالة والغيرة عليها والنضال المتواصل من اجلها .

لكن البر بهذه الاصالة يفرض ان نكتشف عن الانحرافات التي طرأت او قد تطرأ عليها وزاغت او قد تزيغ بها عن حقيقتها ولب لبابها ، كما كشفنا عن تهافت الذين ذهبوا في معنى التفتح والمعاصرة مذاهب من شانها ان تهدد بضياع مقومات الذاتية وتؤول في اخر المطاف الى المسخ والذوبان في الاقوى .

فمن الناس ـ في عالمنا الثالث وخاصة في مجتمعنا العربي الاسلامي ـ من صدموا بالمدنية الحديثة وانبهروا بها انبهارا فشعروا بخطرها على معتقداتهم واخلاقهم وانماط حياتهم فانطووا على انفسهم وتوهموا النجاة في التمسك بالقديم واعتبروا التجديد بدعة والتفتح انحرافا ولاذوا بالتاريخ يتأملون اشباحه ويجترون ذكرياته ولم يعطوا في دنياهم كانهم سيعيشون ابدا بل انشغلوا باخراهم كانهم سيموتون غدا . وكتبوا ما اعلوا شأن الروح دون الجسد وتمسكوا بالجوهر دون المادة وقابلوا بين الشرق والغرب واعتبروا تفوق الغرب في عدة ميادين قضاء وقدرا . ورددوا مع ابي الطيب :

اتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم ، واتيناه على الهرم

او تسلوا عن واقعهم المرير بما تشكوه بعض بلاد الغرب من ازمات في اوساط الشباب وما تعانيه من متناقضات في جوانب من حضارتها ، فيحمدون الله على ان الداء لم يستفحل في ديارهم كما استشرى عند غيرهم ، مثلهم كمثل ذلك الشويعر الذي سئل في الموازنة بينه وبين شاعر معاصر له متفوق عليه فاجاب : ان جيدة خير من جيدي ولكن رديئي خير من رديئه .

او هم استعاضوا عن واقعهم المر بالاحلام والظلال فاهملوا اللب وفتنوا بالقشور وحلت الكلمة محل الفكرة ، والخيال محل الحقيقة ، واختلط عندهم الصحيح والزائف واشتبه الجوهر بالعرض وانهزم العقل الفاتح امام معميات الكون ووجم امام تساؤلات الوجود ، فكان نفخ الاوداج والتضجيج والوعد والوعيد عن طريق امواج الاثير ، وكانت معارك الصحف ، وعرضت بطولة الشخصيات المسرحية والسينمائية والقصصية البطولة في ساحة الوغى وميدان الشرف ، وكانت الثقافة اللفظية الزائفة كالنقود التي ليس لها رصيد من ذهب ، وبعبارة اخرى اصبح القوم يقولون ولا يفعلون فترتاح بذلك ضمائرهم .

والحال ان هذا التصور للماضي تنكر لا يغتفر للماضي ذاته . والاصالة المرادفة للانغلاق على النفس خير طريق للقضاء عليها وافساح المجال امام الغزو الروحي والفكري المتسابق علينا من كل جانب .

واذا كان للماضي دور اساسي في تكييفنا وخلقنا على ما نحن عليه ، وكانت ذاتنا الفرديه والجماعية ثمرة كل التجارب التي عشناها بقطع النظر عما تعرضت له من مآخذ ومآت وما مرت به من مصاعب ومهاو ، واذا جارينا « هيغل » فيما ذهب اليه من ان « الكون هو ما قد كان » واعتبرنا رأي برغسون القائل « ان الزمان الحي هو ديمومة متصلة واستمرار دائب » فانه لا مندوحة رغم كل ذلك من التسليم بان الشعور بالماضي لا يمكن ان يمر بنفس الحالة مرتين واننا نبني ذاتنا كل لحظة فلا اعادة ولا توقف الا بالموت والانقراض . وهذا معناه ان سنة الحياة تقتضينا الا نكون أسرى للماضي ولا نقدسه تقديسا أعمى ساذجا وننذهل عن الحاضر او نهرب من المستقبل . يقول « : « ان المقولة الاولى من مقولات الوعي التاريخي لا يمكن ان تكون هي التذكرة او التذكير ، بل هي الترقب او الانتظار ، والرجاء او الاستباق » . لذلك وجب ان نستقرىء الماضي ونستمد منه العبرة على ضوء حاضرنا ومستقبلنا . فنحن اذا قطعنا انفسنا عن الماضي وانسلخنا عن جزء منا وفقدنا مرجعا اصيلا لقيم الحاضر ، ولكننا لا نستطيع ان نتقدم اذا تركنا هذا الماضي يرين علينا ويلاحقنا باستمرار ، ويجب ان نحيا ـ كما عبر عن ذلك زكريا ابراهيم ـ لا من اجل ما لا يمكن استرجاعه بل من اجل ما لا يمكن التنبؤ به .

وعلى هذا الاساس وبهذه النظرة الحركية للماضي يجب ان ننظر في مقومات اصالتنا ونؤمن بحريتنا في تكييف مصيرنا ونتفق على سلم القيم الحيوية الانسانية التي يجب ان تكون قاعدة لنا في تفكيرنا واعمالنا وعلاقتنا مع غيرنا .

وكما واجهنا القاعدين المتفرجين والمبتهلين المتوكلين واليائسين العاجزين والدجالين المغالطين ـ ايام الكفاح المقدس من اجل التحرير السياسي ـ بعد قرون من الانحطاط وعقود من الاستعمار ، فاعدنا كتابة التاريخ وصنعناه بعد ان صنعنا فخلقنا انفسنا من جديد ، يجب اليوم ـ ونحن في مفترق الطرق ـ ان نتساءل من نحن بالضبط وماذا نريد ان نكون وما هو دورنا في العالم والى اية غاية نسعى ؟

نحن في هذا الوطن الكبير ، شعب دينه الاسلام ولغته العربية يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين ويتصور الكرامة والعدالة والمساواة والسلم والاخاء البشري تصورا حركيا تقدميا مبرأ من الاوهام خالصا من التجريدات والتهويمات ، ونحن كتلة بشرية متضامنة تعيش اكثريتها في البحر الابيض المتوسط ولا سبيل الى تجاهل ما طبع به شخصيتنا من شمائل ولا الى نكران معطياته او

التنصل من مقتضياته ، ونحن نواجه تحديا كبيرا يتمثل في الصهيونية والامبريالية والعنصرية وهي لا تكتفي بالتطاول علينا ومضايقتنا بل لا تتورع في الهجوم علينا والاعتداء على أقدس مقدساتنا واضطهادنا واحتلال اراضينا ، ونحن في عالم يعاني ازمة ضمير وكأنه في مخاض اليم لان النسق الحضاري الذي كان يحدد به معالم رسالته اندك اندكاكا ولا يزال يبحث عن نفسه ويحاول استعادة روحه السليب .
ونحن في هذا العالم ترتعد فرائصنا عندما نذكر الحرب النووية الممكنة وما ينتظرنا جميعا لو اختل التوازن الرهيب الذي تمسك بأطرافه الدول العظمى ، ونحن في معمورة يتضخم عدد سكانها ويتلوث ماؤها وهواؤها ويتعفن جوها وتهدد الامراض المعدية والكوارث الطبيعية مئات الملايين من ابنائها ، ثم نحن في عهد العلوم والاختراعات العجيبة والتكنولوجيا ، عهد تغيرت فيه الهياكل الاجتماعية رأسا على عقب وتطورت المفاهيم والمضامين التربوية تطورا جذريا وزادت سرعة الحياة اليومية فبلغت حد الجنون واصبحت قضية الساعة تنعت بـ « صدمة المستقبل » ، وهو عنوان كتاب لعالم اجتماعي معاصر يدعى « الفان طوفلير » (صدر منذ اسابيع ولقي صدى بعيدا ورواجا كبيرا) ، وظهر علم جديد يسمى « المستقبلية » ويعنى باستقبال المستقبل والتكهن بنواميسه والاستعداد لمواجهته .
ونحن في مرحلة من حياتنا الثقافية تضاءل فيها نفوذ الكتاب المطبوع وانتشرت الوسائل السمعية البصرية واصبح الشباب يستمدون تربيتهم لا من الاولياء والمدرسة فقط بل كذلك وبالخصوص من الاسطوانات ومختلف الاذاعات والتلفزات ، ويشرون تجربتهم لا بالرواية والسماع وشهادة الكهول فحسب بل بالافلام والمسرحيات الطلائعية والموسيقى الصاخبة والاسفار التي يسرتها وسائل النقل العصرية وأتاحها التعاون الثقافي والدولي في كل المجالات وعلى كافة المستويات .

فاما ان نقنع بمنزلة الدون ونيأس من تلافي التباين الموجود بيننا وبين الدول المتقدمة فنتغذى بالمرارة ونعيش بالحقد ونتسلى عن الحاضر والمستقبل بالماضي المجيد فيكون « الهروب الى الامام » كما يقال ، او ان نكون اصيلين بحق ونقوى على ذلك انسانيا وثقافيا وحضاريا ، فنواجه ذاتنا وعالمنا مواجهة الصدق والعدل ونتفتح على انفسنا وعلى ما حولنا فننفخ في ديننا روحا جديدة ونستوحي منه ـ أسوة باجدادنا الذين تحملوا الامانة فاضاءوا الكون وصنعوا الامجاد صنعا ـ نستوحي معنى التفكير الجريء والعمل الصالح ونستمد منه الايمان الخلاق والامل العريض والاعتماد على النفس والتصور الصحيح برسالة الانسان في هذا العالم والتسليم بان الحرية اكتساب وجدارة وان الاخلاق صدق في القول واخلاص في العمل ، ونتجاوز مرحلة الاكتفاء بالتغني باللغة القومية الى مغالبة العقبات الفنية التي تحول دون نشرها وتطويرها الى لغة حضارة وعلم القرن العشرين ، مثلما كانت لغة حضارة وعلم في عصورها الذهبية ، من دون أن نهمل اللغات الحية على غرار اجدادنا الذين اقبلوا على اللغات المنتشرة في عصرهم واتخذوها سبيلا الى الكرع من مناهل الثقافات الاجنبية ، ويجب ان نطمح الى ما وراء اللغة من معان وطاقة فكرية ومشاعر ومثل عليا ، ولا بد كذلك من تطوير ثقافتنا والتخلص من موقف الدفاع وحالة الانكماش وطور التقليد والحفظ . فالثقافة الاصيلة فتح مستمر وغزو لعميات الكون وسيطرة على الطبيعة وتجاوز لا يعرف التوقف .

فالاصالة اذن هي تعزيز الذات بتعزيز المقومات الجوهرية على اساس اعادة تقييم هذه المقومات بالرجوع الى روحها لا الى نصها وتخليصها مما علق بها بسبب الجمود والتنكر والسلبية في الشؤون العقلية والوجدانية والاخلاقية وما نتج عنها من انحطاط واستعمار ، والاصالة هي احياء للنفوس التي جفت ينابيعها واصلاح للعقليات التي بليت معقولاتها ، والاصالة هي كذلك وبالخصوص اليقظة الى ما يتهددنا من شتى انواع الغزو الفكري وهيمنة الايديولوجية الاجنبية التي هي المقدمة الضرورية للهيمنة الاقتصادية والسياسية . والاصالة تفتح او لا تكون ، لانها اصغاء ذكي مرهف لروح العصر ووعي بمعطياته وتمثل متجدد له بمختلف التيارات الثقافية والاتجاهات العلمية ، وقدرة على المنح والاقتباس والتفاعل والهضم من دون مركب ولا استسلام .

ان الاصالة حفاظ على الجوهر وانسجام مع الحياة ورهان على المستقبل الذي سيكون مشرفا في مستوى عظمة الانسان اذا ما عرفنا كيف نكتل جميعا مجهوداتنا ونستأصل الاطماع ونتطهر من مركبات التصاغر او التعاظم وتأخذ انفسنا بالتسامح وننصرف الى بناء ما سماه ابو نصر الفارابي بالمعمورة الفاضلة .

وفي خضم هذه الملحمة القومية والانسانية الكبرى يبدو دور المثقفين الشرفاء الاحرار ذوي المشاعر الوطنية المتوقدة الصادقة والنظرة الانسانية الثقافية البعيدة ، خطيرا جدا . فهم الذين يمحصون الصحيح من الزائف ، وهم الذين يتقحمون على علاج مثل هذه القضايا المصيرية فينيرون الطريق ، وهم الذين يفضحون اساليب الاجتثاث المدسوسة ، ويميزون التقاليد السليمة من التقاليد البالية ويتبينون التراث الحي من التراث المتآكل ، وهم الذين يسكبون النظريات والآراء ويمزجونها بروحهم ويسندونها الى موقف فلسفي صحيح في الحياة فيكسبونها مسحة الاصالة والمعاصرة .

لذلك راج في الصين الشعبية منذ ١٩٤٩ الشعار التالي : « ان رجال الفكر هم كنز الامة » . واضيف : لانهم الحارس الامين على الذاتية الاصيلة والضامن في حيويتها وتناغمها مع العصر .

وانه لا تنمية شاملة ولا ازدهار ولا خروج من التخلف ولا استقلال سياسي ولا كفاية اقتصادية من دون مناعة فكرية واستقلال ثقافي .

ولنتأمل في هذا المقام ما دونته الكاتبة الشهيرة « دي ستال » في حديث طويل عن نابليون ، ولعله يفيد اقواما كثيرين ، قالت : « كان ينظر الى المخلوقات البشرية كما ينظر الى حادث بسيط او شيء تافه . فلا انسان في الدنيا الا هو ، وكل شيء له وحده ، فقد اعتلى عرش فرنسا وهي يومئذ حرة قوية غنية . ثم اقصي عنها فتركها ضعيفة منهوكة ، هدفا للغزاة ، انه استولى عليها وحدودها حتى نهر الرين فتركها ـ وقد صغرت وضعفت ـ تحت اعباء الديون الحربية وذلك نتيجة عنفه الذي آل الى الافلاس والانحطاط ... ونابليون نفسه يصرح في آخر ايامه : اتعلمون ماذا ادهشني في هذا العالم ؟ ادهشني ان القوة مهما اشتدت لا تنظم امرا ولا تخلد اثرا صالحا لان الفكر يتغلب دائما في النهاية على السيف ويهزمه » .

فالقوة التي يجب ان نعدها ما استطعنا ليست فقط القوة المادية بل القوة الروحية والمعنوية ، لانها هي التي تخلق القوة المادية وتحسن التصرف فيها ، وهي ايضا معنى من معاني الاصالة .
وغني عن البيان ان مصير الثقافة ومستقبل الشباب ، عدتنا ورأس مالنا ، وتطور الحضارة مرتبط كله أوثق الارتباط بمصير التعليم والتربية ـ محتوى ومناهج واختيارات وغايات ـ وهذا مشكل حيوي مصيري آخر تواجهه شعوبنا ، فعسى أن يكون ذلك على اساس الاصالة المتفتحة والتفتح الاصيل .

تونس

محمد المزالي